٢ـ أساليب الإرشاد إلى السنن الإلهية ولماذا بنيت الحياة عليها؟

١/٢: أساليب الإرشاد إلى وجود السنن

أقام الله كونه على السنن- كما علمنا- وأخضع حياة البشر في هذه الدنيا لسنن ثابتة مطردة عامة- كما بينا- ومن رحمته سبحانه بعباده أرشادهم في كتابه المقروء إلى وجود هذه السنن التي تحكم الكون وتحكم الحياة والأحياء. وكان بيانه سبحانه وهدايته إلى وجود السنن متعدد الأساليب وبشتى الصور. وأهم هذه الأساليب ما يلي:

١/١/٢: قد يرشد الله تعالى إلى وجود السنة في مجال من المجالات بصريح العبارة، وبلفظ السنة، مثال ذلك قول الله تعالى: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾[آل عمران:١٣٧]. وقوله سبحانه: ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾[فاطر:٤٣]. وقول الله تعالى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾[الأحزاب:٣٨] إلى غير ذلك من الآيات التي عرض فيها القرآن الكريم لوجود السنن في الحياة والكون بلفظ السنة الصريح.

٢/١/٢: وقد يخبرنا الله سبحانه بوجود سنة ما، لا بلفظ السنة، كما في الحالة السابقة، وإنما **بتقرير نتيجة معينة بناء على سبب معين**، فيكون ذلك إخباراً عن وجود سنة الله تعالى في هذا المجال، فقد يخبر الله تعالى بأنه أصاب [illegible] أو أهلك أمة من الأمم، أو قرية من القرى، بسبب ما ارتكبوه من

ظلم، وبعد عن سنن العدل الذي أقام عليه سبحانه الحياة، فيدل ربط السبب بمسببين، على وجود السنة الإلهية في هذا الخصوص، مثال ذلك قول الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟﴾ [الكهف:٥٩] وقوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟﴾[يونس:١٣] وقوله تعالى: ﴿وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾[الأعراف:١٦٥] وقوله سبحانه: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟﴾[النمل:٥٢].

٣/١/٢: كما قد يخبرنا سبحانه عن وجود السنة التي تحكم الكون والحياة والأحياء **بأسلوب القضية الشرطية** التي يتم فيها الربط بين **الشرط والجزاء** المترتب عليه، بحيث إذا تحقق الشرط تحقق الجزاء لا محالة. ومثال ذلك قول الله تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ [الجن:١٦]، ومثل قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾[الأعراف:٩٦]، ومثل قوله سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾[المائدة:٦٦].

ففي الآيات الثلاثة تم الربط بين الاستقامة على منهج الله تعالى في كل زمان ومكان، وبين وفرة الخيرات واستقرار المجتمعات، وذلك بأسلوب القضية الشرطية التي تربط بين تحقق الشرط ووقوع جزائه. فمتى رغب المجتمع في تحقيق الجزاء فعليه أن يوفر الشرط، وإذا تخلف الشرط فعلى الإنسان أن لا يطمع في تحقق الجزاء.

ومن هذا النوع أيضا قوله تعالى: ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾

[محمد:٧]، وقوله تعالى: ﴿إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾[الأنفال:٢٩]. ففي الآيات الكريمة ربط للجزاء بالشرط، وعلى من يطمع في النصر أن يحقق شرطه، ومن يرد أن يكون له فرقان يبين الأمور فليتق الله تعالى، وهذا النوع من أنواع سنن الله تعالى هو أكثر ما جاء منها بالقرآن الكريم. ومجيء السنة على هذا النحو (أسلوب القضية الشرطية) الذي يربط فيه بين الشرط وجزائه، هو توجيه من الله تعالى للإنسان في سلوكه وتبصير له بالطريق الصحيح في الوصول إلى غاياته، ورحمة من الله تعالى بخلقه أن هداهم إلى المقدمات المطلوبة للحصول على الغايات والنتائج المرجوة، أو المطلوبة لتوقي الوقوع في النتائج غير المرغوبة.

٤/١/٢: ومن أساليب هداية الله تعالى إلى السنن الإلهية الحاكمة لبناء المجتمع وتحقيق قوته، **النهي عن أمر يترتب عليه أمر آخر غير محبوب**، مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾[الأنفال:٤٦] فقد رتبت الآية الفشل وذهاب الريح على التنازع والاختلاف، فكشفت لنا سنة الله تعالى في هذا الشأن بهذا الأسلوب، وهذا التنوع من البيان للسنن الإلهية يشبه سابقه في أن توجيه لنا من أجل تجنب النتائج غير المحببة في حياتنا، بنهينا عن الوقوع فيما يؤدي إليها.

٥/١/٢: كذلك من أساليب هداية الله لنا إلى سننه، أن يوردها في شكل قضية فعلية منجزة، محققة الوقوع، مثل قوله تعالى: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾[البقرة:٢٧٦]. فقد أخبرنا الله سبحانه بهذا التقرر، بسنته في التعامل مع المجتمعات والاقتصاديات القائمة على الربا، وبسنته مع

الاقتصاديات المبنية على الزكوات والإنفاق في سبيل الله. وسنته هي محق المجتمعات والاقتصاديات الأولى، ومضاعفة نماء المجتمعات والاقتصاديات الثانية. وهو أسلوب يفيد ـ كسابقه ـ توجيه سلوك الإنسان إلى ما ينبغي أن يكون عليه، حتى يحقق النتائج المرغوبة، ويتجنب النتائج السيئة غير المطلوبة.

هذا وهناك أساليب أخرى استخدمها القرآن الكريم، أو استخدمتها السنة المطهرة في بيان السنن الإلهية والهداية إليها. وهنا يأتي سؤال من الأهمية أن نقف له على إجابة ألا وهو: هل جاءت السنن في الكتاب الكريم والسنة المطهرة على سبيل الحصر أم جاءت على سبيل التمثيل؟

لقد أثار بعض الباحثين هذا التساؤل[1] واختلفت حوله الإجابة فمن قائل إنها جاءت على سبيل التمثيل، ومن قاطع بأن السنن لا بد أن تكون قد جاءت على سبيل الحصر[2]، ومن استقراء حجج الموقفين المشار إليهما، يتبين أن الخلاف بينهما ليس قائما على التحقيق، ذلك أن السنن وإن كانت الهداية إليها وردت في الكتاب الكريم أو السنة المطهرة، لكنه ليس بشرط أن تكون بطريق مباشر وصورة واضحة، بحيث تعلم بداهة، لكنها تكون في حاجة إلى بحث وإعمال نظر حتى يتم إدراجها في أعداد السنن المعلومة لنا.

إن الكون المادي يقوم على السنن، وكذلك الاجتماع البشرى يقوم على سنن، والسنن موجودة ضرورة، لأن الكون والاجتماع قائمين، لكننا لا نعلم

(١) د. جمال الدين عطية، سنن الله في الآفاق والأنفس، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة لندوة في ١٨/ ١٢/ ١٩٨٩، ١٩٩٠/١/٣، ١٩٩٠/١/١٠، ص ٨.

(٢) د. سيف الدين عبد الفتاح، المرجع السابق، ص ١٢٧.

حقيقة هذه السنن إلا إذا بحثنا فهدينا، فنعلم بوجود السنة المعينة وكنهها، والبحث كما يشمل الكون المادي، يشمل البحث والنظر في كتاب الله تعالى وسنة رسوله، وبالبحثين نكتشف السنن المبثوثة في كتاب الله المنظور والمقروء.

ومن ثم فإن الفرق بين الرأيين السابقين ليس كبيراً، إن لم يكن غير قائم، فالذين قالوا بورودها على سبيل التمثيل نظروا إلى الأمر بالبحث عنها والدعوة إلى السير من أجل اكتشافها، وبالتالي يكون ما قدم إلينا منها وعلمناه هو بعض السنن، والبعض الآخر مدعوون إلى البحث عنه، والذين قالوا بأنها وردت على سبيل الحصر، نظروا إلى أصل وجود السنن، وهي حقاً موجودة ـ كما قلنا ـ لكنها تحتاج ـ لكي تخرج من عالم الوجود في علم الله تعالى وبنائه الكون عليها، إلى علم البشر، ومعرفتهم بها تحتاج إلى البحث والنظر حتى يتم الكشف عنها، والكشف إنما يكون بشيء موجود.

وهكذا يكون الخلاف بين الموقفين، خلاف في وجهة النظر لا أكثر.

٢/٢: لماذا بنيت الحياة على السنن؟

إن حكمة الله تعالى تتجلى واضحة في بناء الكون والحياة على أساس من السنن الثابتة المطردة المنضبطة العامة الوقوع، وذلك أن صياغة الحياة ضمن روابط مطردة وعلاقات ثابتة هو الذي يجعل الإنسان يتعرف على موضع [illegible]، وعلى الوسائل التي يجب أن يسلكها في سبيل تكييف بيئته وحياته والوصول إلى إشباع حاجته، ولولا ذلك لما استقام للإنسان تحقيق هدف من [illegible] أو إشباع حاجة من حاجاته. إن خضوع الماء لقانون ثابت في الغليان أو

التجمد أو التحول إلى الحالة الغازية، هو الذي يجعل الإنسان قادراً على الاستفادة من الماء في أحواله المختلفة، يستطيع أن يصل به إلى حالة الغليان عندما يحتاج إليه في هذه الحالة، ويستطيع أن يصل به إلى حالة التجمد عندما يحتاج إليه في هذه الصورة، ويستطيع أن يحوله إلى الحالة الغازية ثم العودة به إلى حالة السيولة مرة أخرى عندما يكون ذلك محققاً لرغباته وشبعاً لحاجاته.

إن الذي يمكن الإنسان من كل ذلك هو خضوع الماء للقانون الذي طبعه الله عليه، وإطراد القانون وعدم تخلفه، وعمومية ذلك في الأزمنة والأمكنة، ولسائر الناس.

إن بناء الحياة على السنن الثابتة المطردة العامة الوقوع يلقى بالمسئولية في بناء الحياة على الإنسان، فهذه السنن لا تستعصي على أحد، وإنما تستجيب لمن يستخدمها، يقول تعالى: ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾[الطلاق:٣] أي سننا تنظم علاقته بكل أجزاء الكون، من أخذه بسنته أقبلت عليه السنة ـ ولا بد ـ فهي منقادة لكل من عمل بها واستغلها بحقها، مؤمنا بالله تعالى أو غير مؤمن بها ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ [هود:١٥]، فالله تعالى لا يخلف سننه مع من يصلحون بها دنياهم ولو كانوا به مشركين وعنه معرضين، وإنما تنقاد السنن لكل من يستخدمها بشروطها ويعمل وفقاً لها.

إن هذا هو بعض مضمون تسخير الله تعالى ما في السموات وما في الأرض للإنسان، إذ قد جعل سبحانه لكل شيء سننا يمكن باكتشافها

والوقوف عليها الاستفادة من هذه المسخرات ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾[الجاثية:١٣].

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾[إبراهيم:٣٢-٣٤].

ان انقياد السنن لمن يستخدمها هو نفسه سنة إلهية، وبها يتحقق الابتلاء والاختيار الذي خلق له الإنسان، ومن خلال السنن وانقيادها مسخرة يظهر دور الإرادة الإنسانية، وحرية الاختيار التي أتيحت للإنسان، ومن ثم فإن النتائج التي نرى على الساحة الاجتماعية ستكون نتيجة طبيعة لعمل الإنسان وسلوكه ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴾ [الشورى:٣٠]